مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ١: ١٠–١٤؛ ٢: ١–٣)

أنتَ يا ربُّ في البدءِ أسَّستَ الأرضَ والسمواتُ هي صُنعُ يدَيْك* وهي تزولُ وأنتَ تبقى وكلُّها تَبلى كالثوبِ* وتطويها كالرداءِ فتتغيَّرُ وأنتَ أنتَ وسنوكَ لن تَفنى* ولِمَنْ من الملائكةِ قالَ قطُّ اجلِسْ عن يميني حتى أجعلَ أعداءَك موطِئاً لقدَمَيْك* أليسوا جميعُهم أرواحاً خادِمةً تُرْسَلُ للخدمةِ من أجلِ الذينَ سيرِثونَ الخلاص* فلذلك يجبُ علينا أن نُصغيَ إلى ما سمِعناهُ إصغاءً أشدَّ لئلاَّ يسرَبَ من أذهاننا* فإنَّها إن كانتِ الكلِمةُ التي نُطِقَ بها على ألسِنةِ ملائكةٍ قد ثبَتت وكلُّ تعدٍّ ومعصيَةٍ نالَ جزاءً عدلاً* فكيفَ نُفلِتُ نحنُ إن أهمَلنا خلاصاً عظيماً كهذا قد نُطِقَ به على لسان الربِّ أولاً ثمَّ ثبَّتَهُ لنا الذينَ سمِعوه.

إكرام ذخائر القديسين

للتعريف بداية نقول إن ما يُعرف بـ«ذخائر القديسين» هو بالدرجة الأولى أجسادهم وبقايا أجسادهم، ثيابهم، إلى الأدوات التي استعملوها في حياتهم. هذا بالإضافة إلى أدوات تعذيبهم، في ما يختصّ بالشهداء. أما تاريخياً فثمة شواهد عديدة على اهتمام المسيحيين بذخائر قديسيهم، منذ العصور الأولى. ففي سيرة استشهاد القديس بوليكربوس أسقف إزمير (+١٥٦) أن عطراً كان يفوح من جسده وهو يحترق، «كأنّه البخور أو عطور نادرة ثمينة»، على ما يروي كاتب السيرة. ويضيف قائلاً: «فجمعنا عظامه التي هي أكرم من الحجارة الكريمة وأثمن من الذهب، ووضعناها في مكان مناسب، راجين أن يساعدنا الرب على الاجتماع في هذا المكان كلما استطعنا لكي نحتفل، فرحين ومبتهجين بشهادته». وفي سيرة القديس غريغوريوس العجائبي (١٧ تشرين الثاني) الذي عاش في القرن الثالث، أنّه ما إن تسقّف على قيصرية فلسطين حتى جهد يبحث عن بقايا شهداء الاضطهادات، في البراري المحيطة، ليجمعها في أماكن لائقة ويبني عليها المذابح للقداس الإلهي. هذا ناهيك عما في سفر أعمال الرسل من أن الناس «كانوا يحملون المرضى خارجاً في الشوارع ويضعونهم على فُرش وأسرّة، حتى إذا جاء بطرس يُخيِّم ولو ظلّه على أحد منهم» (٥: ١٥)، وأنهم كانوا يأخذون إلى مرضاهم مناديل ومآزر استعملها الرسول بولس «فتزول عنهم الأمراض، وتخرج الأرواح الشريرة منهم» (١٩: ١١–١٢). وفي العهد القديم أيضاً إشارات صريحة عديدة إلى فاعلية بقايا القديسين، نذكر منها مثالاً كيف أن ميتاً ألقاه دافنوه في قبر النبي أليشع، «عاش وقام على رجليه» ما إن لامست جثته عظام النبي (الملوك الثاني ١٣: ٢١).

يقول القديس سمعان اللاهوتي الحديث عن تقديس الجسد: «إن النفس التي تأهّلت، بالجهاد، لأن تشترك في النعمة الإلهية، يتقدّس معها كامل الجسد أيضاً. لا لأنها

العدد ١٣/٢٠١٣

الأحد ٣١ آذار

الأحد الثاني من الصوم

أحد القديس غريغوريوس بالاماس

تذكار القديس الشهيد في الكهنة إيباتيوس اللحن الثاني

إنجيل السَحَر العاشر

الإنجيل

(مرقس ٢: ١–١٢)

في ذلك الزمان دخل يسوعُ كَفَرْنَاحومَ وسُمع أنَّه في بيتٍ* فللوقت اجتمعَ كثيرون حتى إنَّه لم يعُدْ موضعٌ ولا ما حولَ الباب يَسَعُ وكان يخاطبهم بالكلمة* فأتوا إليهِ بمخلَّعٍ يحملهُ أربعةٌ* وإذ لم يقدروا أن يقتربوا إليه لسبب الجمع كشفوا السقفَ حيث كان. وبعد ما نَقَبوهُ دلَّوا السريرَ الذي كان المخلَّعُ مضطجعاً عليهِ* فلمَّا رأى يسوعُ إيمانَهم قال للمخلَّعِ يا بُنيَّ مغفورٌ لك خطاياك* وكان قومٌ مِنَ الكتبةِ جالسين هناك يفكّرون في قلوبِهِمْ ما بالُ هذا يتكلَّمُ هكذا بالتجديف. مَن يقدِر أنْ يغفِرَ الخطايا إلاَّ اللهُ وحدَهُ* فللوقت علمَ يسوعُ بروحِه أنَّهم يفكّرون هكذا في أنفسِهم فقال لهم لماذا تفكرون بهذا في قلوبكم* ما الأيسرُ أن يُقالَ مغفورةٌ لك خطاياك أم أنْ يُقالَ قُمْ واحملْ سريرَك وامشِ* ولكن لكي تعلَموا أنَّ ابنَ البشر لهُ سلطانٌ على الأرض أن يغفرَ الخطايا قال للمخلَّع* لك أقول قُمْ واحملْ سريرَك واذهب إلى بيتك* فقام للوقتِ وحملَ سريرَهُ وخرجَ أمامَ الجميعِ حتى دهِشَ كلُّهم ومجَّدوا اللهَ قائلين ما رأينا مثلَ هذا قطُّ.

تكمن في هذا الجسد وحسب بل وعلى الأخصّ لأنه أداة جهادها وشريكها فيه. وكما أن نعمة التألّه تستمر في نفوس القديسين بعد رقادهم، فهي تستمرّ في أجسادهم أيضاً، كما أن لاهوت المسيح لم ينفصل عن جسده الطاهر بالموت. لذلك نجد عظام القديسين وبقاياهم أمست آنية دائمة للنعمة الإلهية، وينابيع أشفية لمُكرّميها والمتبرّكين بها». لعلّ في هذا التعليم، على بساطته، أبلغ تعبير عن سبب توقنا إلى إكرام بقايا القديسين والتبرّك منها. لا بدافعٍ العاطفة وحسب، وإن كان دافعاً مشروعاً، بل إكراماً للنعمة الإلهية غير المنظورة الحاضرة في البقايا المنظورة المحسوسة. في هذا امتداد تطبيقي لإيماننا بالتجسد الإلهي، وهو أساس خلاص الإنسان والخليقة أجمع. عليه فإننا لا نغالي إن قُلنا إن التنكّر لإكرام ذخائر القديسين هو تنكّر تطبيقي لمفاعيل تجسّد المسيح، كتقديس العالم المادي وإعادته إلى ما كان عليه قبل السقوط.

جسدنا البشري، كما الخليقة المادية كلّها، ليس في أصله شر إذ هو خليقة الله، وكل ما خلقه الله كان حسناً. وسقوط الإنسان ومعه الخليقة المادية كلّها، استجرّ عليه موتاً وفساداً ولكنه لم يلغِ الأصل. لأجل هذا نصلّي في تجنيز الراقدين فنقول «أنا مثال صورة مجدك الذي لا يوصف، وإن كنت حاملاً آثار الزلّات». ولمّا تجسّد ابن الله مرتضياً أن يولد في عالمنا ويعيش فيه لم يخلق عالماً طاهراً موازياً لعالمنا الساقط، بل أعاد لبشريتنا وللخليقة جمعاء إمكانية العودة إلى ملء الأصل الأول. و«بقدر ما امتلأ الإنسان من المسيح، الإله الإنسان، بقدر ما صار مسيحاً، إنساناً متألّهاً»، على ما يقول القديس سمعان اللاهوتي الحديث. هذا هو تماماً ما فعله القديسون. جاهدوا نفساً وجسداً، تنقّوا نفساً وجسداً، فتألّهوا نفساً وجسداً أيضاً. وكما أن ماء المعمودية يحوي نعمة التقديس، وإن لم تتغيّر خصائصه المادية، كذلك أجساد القديسين تبقى حاوية نعمة التقديس، إن تحلّلت أجسادهم أو لم تتحلّل، وإن أفاضت بقاياهم طيباً أو لم تُفِض.

في حادثة معبّرة، من روسيا سنة ١٩٢١، إن المجلس الثوري البولشفي لمدينة إيركوتسك صادَرَ جثمان القديس إينوكندس أسقف إيركوتسك من أحد الأديار المحيطة، وشكّل لجنة من الأطبّاء وممثلي الحزب الشيوعي لفحصه. ذلك أن جثمان القديس كان سالماً من أي فساد بالرغم من مرور زهاء المئتي عام على رقاده. بالطبع لم يجد الملحدون أي تفسير علمي لبقاء الجثمان سالماً، فجاء تقريرهم في أكثر من ثُلثيه، مستعرضاً بالتفصيل «تعرّض أنسجة لباس الجثمان للإهتراء». أما ما تبقّى من التقرير فيصف حالة الجثمان بـ«التحنيط الطبيعي المتعذّر تفسيره علمياً لاستحالة التدقيق في ظروف المناخ والتربة لمكان الدفن»! نشر الملحدون تقريرهم، ووضعوا جثمان القديس في أحد متاحف المدينة وتحته عبارة «مومياء سيبيرية». وإن هي أيام حتى بات المؤمنون يتقاطرون من كل مكان للتبرّك من الذخيرة المقدسة، ومنهم مَن سجد وصلّى أمامها علناً

تأمل

«فأتوا إليه بمخلَّع يحمله أربعة، وإذ لم يقدِروا أن يقتربوا إليه لسبب الجمع كشفوا السقف حيث كان وبعد ما نَقبوهُ دلّوا السريرَ الذالمخلَّع مضطجعاً عليه» (مر ٢: ٣–٤).

أتوا إليه حاملين مخلَّعاً يرفعه أربعة رجال، وبسبب الجمع الكثير لم يستطيعوا أن يقتربوا إليه، فكشفوا سقف البيت الذي كان فيه وبعدما فتحوا طاقة دلّوا السرير الذي كان المخلّع مستلقياً عليه.

من الممكن الاعتقاد أن العجيبة حصلت بسبب إيمان أولئك الذين كانوا يحملون المخلّع، وأن الرب عندما رأى إيمانهم شفى المريض. لكن من جهتي أعتقد أن الأمر لم يكن كذلك. طبعاً عند شفاء الرب لابن رئيس المجمع لم يطلب منه إيماناً، ولا طلب إيماناً من ابنة الكنعانية أو ابنة يايروس، بل اكتفى بإيمان أولئك الذين جاؤوا بالمريض.

من بين هؤلاء، كانت ابنة يايروس قد ماتت، وابنة الكنعانية كانت فاقدة رشدها، أمّا ابن رئيس المجمع فلم يكن حاضراً. لكن المخلّع هنا حاضر وبكامل عقله. جسده فقط كان مشلولاً. لذلك أعتقد وأرجّح أن إيمان المريض نفسه جعل الآخرين يثقون بالرب غير آبه لخطر الاعتقال. وكأن الله تعالى شاء أن يشهد الملحدون أنفسهم لفعل النعمة في رفات قديسه.

ختاماً نشير باختصار إلى نقطتين: نظرة الكنيسة الأرثوذكسية إلى ذخائر القديسين هي هي، بمعزل عما قد يظهر عليها من علامات منظورة أو لا يظهر، كحفظ الجسد من التحلّل أو فيض الطيب أو غيرها. إيماننا أن القدّيسين بجهادهم قدّموا أجسادهم «ذبيحة حيّة مقدّسة مَرْضِيَّةً عند الله» (رو ١٢: ١) فظهرت في أجسادهم أيضاً حياة المسيح، على ما يقول الرسول بولس (٢ كورنثوس ٤: ١٠). ثانياً إن الكنيسة الأرثوذكسية تقارب ما يختصّ بالقديسين وبقاياهم بتوازن حسّاس للغاية، بين التدقيق اللاهوتي والعقائدي (والعلمي عند الحاجة) ليبقى الإيمان محفوظاً من الشوائب، عفوية كانت أم مقصودة، وبين الإرتكان إلى نعمة الله وحكمته، وهو العجيب في قدّيسيه، لئلاّ «يتعقلن» الإيمان فيضيع.

الفقر والغنى الروحيّان

الروحي والمادي، مساران قد لا نجد ثالث لهما في حياتنا اليوميّة. الروحيّ هو ما يختصّ بالغذاء الروحي والقربى من الله. أمّا المادي فهو الأشياء الخارجيّة المرتبطة بالمادّة، أي الأقرب إلى التجارة وحركة الربح المادي والمعنوي.

في زمن الصوم المبارك يكثر الحديث عن هذين المسارين في سعي إلى التمييز بينهما بغية إبراز هذا الفارق للمؤمنين بهدف الإرشاد والبنيان. تقودنا التعاليم الآبائيّة والقراءات ضمن الخِدَم الكنسيّة للميل أكثر نحو الروحيّات في هذه الفترة، في حال كنّا قد ابتعدنا عنها في السنة الماضية. هذه المرحلة مهمّة للعودة إلى المسار الروحي السليم إذ يكتمل الجهاد الروحي بالرياضة النسكيّة من خلال الصوم وتكثيف الصلوات اليوميّة التي تتمحور تعابيرها حول التوبة والغفران وعدم القنية أي عدم التمسّك بالماديّات. في هذه الفترة يُفترض على المؤمن أن يعتاد على التفكير بأخيه الإنسان المحتاج وأن يبذل من ذاته لصالح أخيه.

أصبح فرح الإنسان وراحته ولَهوُه الشغل الشاغل للبشريّة. الراحة، التي لا تقتصر على المال بل تتعدّاه إلى كلّ ما هو مادّي، أصبحت هاجساً عند أبناء هذا الدهر. زيارة الكنيسة والمشاركة في الخِدَم الكنسيّة وبخاصّة الذبيحة الإلهيّة يوم الأحد، لم تعد على قدر الأهميّة التي كانت عليه حتى أواخر القرن الماضي. إنّ اهتمامات الإنسان ونظرته إلى الأمور تختلف من جيل إلى جيل فيختلّ بذلك الميزان الذي به يحدّد الروحيّات والماديّات.

نعم هناك إزدواجيّة في الحياة إذا ما أراد الإنسان أن ينجح. فالإنسان مكوّن من جسد وروح. والمسيحيّة ليست ديانة إنفصاميّة، تطلب تارّةً شيئاً وطوراً شيئاً مختلفاً. إنّنا كمسيحيين مدعوّون إلى التوفيق بين ما هو مادّي وما هو روحي. علينا أن نجيد التوفيق بين الأرضي والسماوي. طبعاً هنا نستثني الرهبان والنسّاك الذين بإرادتهم اختاروا الطريق الأشقى

ومن ضمنهم أولئك الذين كانوا حاملين المريض وآتين به بحماسة ليقتربوا من الرب. طبعاً لم يفعلوا ذلك رغماً عنهم، ولم يغيّر ثقل المشلول فكرهم، بل على العكس تجاوزوا العقبات كلّها. أمّا الفريسيون فقد ابتعدوا عن الرب بسبب ركضهم وراء المجد الذي من الناس. لذلك كان يقول لهم: «كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض، والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه» (يو ٥: ٤٤).

نرى آخرين تمنعهم من المجيء إلى الرب حقولهم أو زواجهم أو اهتمامات معيشية أخرى. كل ذلك لم يرد على فكر المريض بسبب شلل جسده. لذلك بالنسبة لبعض الخطأة هناك حالات يكون فيها المرض أنفع من الصحة فيضحي المرض سبباً لخلاصهم. المرض مثلاً يليّن الأهواء الطبيعيّة الجانحة إلى الشر، يداوي الخطيئة عن طريق الضعف الجسدي فيجعل المريض قابلاً أولاً شفاء النفس قبل الشفاء الجسدي خصوصاً عندما يؤمن بأن الشفاء يأتي من الله. هذا يجعله يصبر بشجاعة أكبر على المرض ويلجأ بإيمان إلى الله ويقوم بأعمال على قدر استطاعته طالباً غفران خطاياه.

القديس غريغوريوس بالاماس

والأسمى محاولين إنكار الذات والتفرّغ للروحيّات. أمّا نحن، المنغمسين في العالم المادي، فنحن المقصودون بهذا التوفيق. علينا ألاّ نتطرّف تجاه أيّ من المسارين بل أن نمزج ونوافق بينهما لئلا نسقط في التراخي أو التطرّف.

داود العظيم يدعو نفسه فقيراً: «أما أنا فمسكين وفقير» (مز ٦٩). كيف يكون ملِكاً وفقيراً؟ لقد كان داود غنيًّا بالمادّة ولكنّه كان فقيراً بالنعمة الروحيّة. كان لا يزال ينتحب بسبب خطيئته فاعتبر بُعده عن الله فقراً وتاه في الأرض. الغنى الروحي هو بالتواجد دائماً بالقرب من الله وإطاعة وصاياه. أمّا الغنى المادي فهو المعروف جيداً في المجتمعات الحديثة وهو تكديس الأموال وحبّ العظمة. الملك داود بالرغم من غناه يعترف بفقر. لقد كان الله ومحبّته الكنز الأهمَّ والذي افتقر إليه، إبتعد قلبه عن الله فأصبح فقيراً. لذا يقول السيّد «حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك» (متى ٦: ٢١). وكنز داود الأهم الذي افتقده لم يكن المُلك والمجد العالمي، بل الحياة مع الله.

في صلاة الغروب عند كسر الخبزات الخمس نرتّل «الأغنياء افتقروا وجاعوا أمّا الذين يبتغون الرب فلا يعوزهم أيّ خير». جوع المادّة، أي الجوع الذي يشعر به الجسد، ليس ذا أهمية عند مَن أودع قلبه لله. في مَثَل الغني ولعازر الوارد في الإنجيل، جاع الغنيّ بعد موته. أمّا لعازر الفقير الذي كان يمضي الليالي عند بابه متمنياً أن يأكل من الفتات الذي تأكله الكلاب، فكان مستريحاً في أحضان إبرهيم. لقد كان على درجة كبرى من الفقر المادي، ولكنّه كنز بذلك كنزاً روحياً على حسب قول عاموس النبي «لا الجوع إلى الخبز ولا العطش إلى الماء بل إلى استماع كلمة الرب» (عاموس ٨: ١١). أصبح لعازر مغتذياً من كلام الرب أمّا مَن لم يعرف الجوع في الحياة الأرضيّة فيختبر الآن جوعاً وعطشاً أقسى من الذي للخبز والماء.

الفقر والغنى كما رأينا ينقسمان أيضاً إلى روحي ومادي. في رحلة الصيام هذه التي ابتدأتها الكنيسة في الأسبوع الماضي، يجهد المؤمنون إلى إحلال التوازن بين الروحيّات والماديّات في سعي لبلوغ فرح قيامة الرب باستعداد تام لإستحقاق المشاركة في هذا الفرح. كلمات الرب يسوع هي السند الحافز الأكبر لهم في هذه المرحلة وهو القائل «أما أنا فلي طعامٌ آخر، طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسَلني وأتمّم عمله» (يو ٤: ٣٤). حبّذا لو نحاول كلّ على قدر إمكانه، إتمام مشيئة الرب لا مشيئتنا نحن، لنجوز ميدان الصوم بفرح شاكرين الرب. ولنجهد أن تكون النِّعم التي تطلبها نفوسنا روحيّةً لا ماديّة، على حسب ما نردّد يوميًّا في الصلاة التي علّمنا إيّاها البار أفرام السرياني: «وأنعم عليّ أنا عبدك الخاطئ بروح العفّة واتّضاع الفكر والصبر والمحبّة».

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb